فهداية الدلالة صدرت أولاً عن الله تعالى ، ثم بالبلاغ من رسوله ﷺ ثانياً .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

وهذه المقولة ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص] قالها الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف ، فقد ذهب إلى سيدنا رسول الله ، وقال : إننا نعلم أنك جئتَ بالحق ، ولكن نخاف إنْ آمنا بك واتبعنا هواك أنْ نُتخطَّف من أرضنا ، ولابُدَّ أنه كان يتكلم بلسان قومه الذين ائتمروا على هذا القول .

والخطْف : هو الأخْذ بشدة وسرعة .

إذن : فهم يُقرُّون للرسول بأنه جاء بالحق ، وأنه على الهدى ، لكن علة امتناعهم أنْ يُتخطفوا ، وكان عليهم أنْ يقارنوا بعقولهم بين أن يكونوا مع رسول الله على الحق وعلى الهدى ويُتخطَّفوا ، وبين أنْ يظلُّوا على كفرهم .

فقصارى ما يصيبهم إنْ اتبعوا رسول الله أن يتخطفهم الناس فى

(١) سبب نزول الآية : قال الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٩٤) : « نزلت فى الحارث بن عثمان بن عبد مناف ، وذلك أنه قال للنبى ﷺ : إنَّا لنعلم أن الذى تقول حقّ ، ولكن يمنعنا من اتباعك أن العرب تخطفنا من أرضنا لإجماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .. قاله ابن عباس فيما أورده عنه القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٨٦) .

أموالهم أو فى أنفسهم - على فرض أن هذا صحيح - قصارى ما يصيبهم خسارة عَرَض فانٍ من الدنيا لو استمر لك لتمتعتَ به مدة بقائك فيها ، وهذا الخير الذى سيفوتك من الدنيا محدود على مقتضى قوة البشر ، ولا يضيرك هذا إنْ كنتَ من أهل الآخرة حيث ستذهب إلى خير بَاقٍ دائم ، خير يناسب قدرة المنعم سبحانه .

أما إنْ ظلُّوا على كفرهم ، فمتاع قليل فى الدنيا الفانية ، ولا نصيبَ لهم فى الآخرة الباقية . إذن : فأىُّ الطريق أهدى ؟ إن المقارنة العقلية ترجح طريق الهدى واتباع الحق الذى جاء به رسول الله ، هذه واحدة .

ثم مَنْ قال إنكم إن اتبعتم الهدى مع رسول الله تُتخطَّفوا وتُضطهدوا ؟ لذلك يرد الله عليهم : قُلْ لهم يا محمد : كذبتم ، فلن يتخطفكم أحد بسبب إسلامكم :﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [القصص]

فقد أنعم الله عليكم وأنتم كافرون مشركون به ، تعبدون الأصنام فى جاهلية ، ومكَّن لكم حياة آمنة فى رحاب بيته الحرام ، ووفَّر لكم رَغَد العيش وأنتم بوادٍ غير ذى زرع حيث يُجْبى إليه الثمرات من كل مكان ، فالذى صنع معكم هذا الصنيع أيترككم ويتخلى عنكم بعد أنْ آمنتم به ، واهتديتم إلى الحق ؟ كيف يكون منكم هذا القياس ؟

ومعنى : ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ .. (٥٧) ﴾ [القصص] استفهام للتقرير ، فاسألهم وسوف يعترفون هم أن الله مكَّن لهم حرماً آمناً يُجبَى إليه ثمرات كل شىء ، فالحق سبحانه يريد أنْ يثبت هذه القضية بإقرارهم بها .

ومعنى ﴿ نُمَكِّن لَّهُمْ .. (٥٧) ﴾ [القصص] نجعلهم مكينين فيه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ .. (٢١) ﴾ [يوسف] والتمكين

يدل على الثبات ؛ لأن ظرف المكان ثابت على خلاف ظرف الزمان .

وقال : ﴿ حَرَمًا آمنًا ..(٥٧) ﴾ [القصص] مع أن الأمن لمن فى المكان ، لكن أراد سبحانه أن يُؤمِّن نفس المكان ، فيكون كل ما فيه آمناً ، حتى القاتل لا يُقتصّ منه فى الحرم ، والحيوان لا يُثار فيه ولا يُصاد ، والنبات لا يُعضد حتى الحجر فى هذا المكان آمن ، ألاَ تراهم يرجمون حجراً فى رمى الجمرات فى حين يُكرْمون الحجر الأسود ويُقبلونه .

وحينما نتأمل الحرم منذ أيام الخليل إبراهيم - عليه السلام - نجد أن له خطة ، وأن الحق سبحانه يُعدُّه ليكون حرماً آمناً ، فلما جاءه إبراهيم قال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

هذا يعنى أن المكان ليس به من مقومات الحياة إلا الهواء ، لأن نفى الزرع يعنى عدم وجود الماء ؛ لذلك اعترضت السيدة هاجر على هذا المكان القفر ، فلما علمتْ أنه اختيار الله لهم قالت : إذن لن يضيعنا[1] .

وقد رأتْ بنفسها أن الله لم يُضيِّعهم ، فلما احتاجت الماء لترضع وليدها وسعتْ فى طلبه بين الصفا والمروة سبعة أشواط على قَدْر ما أطاقتْ لم تجد الماء فى سَعْيها ، ولو أنها وجدته لكان سعيها سبباً إنما أراد الله أنْ يُصدِّقها فى كلمتها ، وأن يثبت لها أنه سبحانه لن يُضيِّعهم من غير أسباب لتتأكد أن كلمتها حق ، ثم شاءتْ قدرة الله أن

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٦٤) من حديث ابن عباس من حديث طويل ، وفيه أن إبراهيم جاء بهاجر وابنها إسماعيل - وهى ترضعه - حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفَّى إبراهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شيء ، فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يُضيِّعنا » .

يخرج الماء من تحت قدم الوليد ، وهو يضرب بقدمه الأرض ، ويبكى من شدة الجوع والعطش ، وانبجستْ زمزم .

ولما أسكن إبراهيم أهله فى هذا المكان المقْفر أراده لهم سكناً دائماً ، لا مجرد استراحة من عناء السفر ؛ لذلك قال : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

وكأنه - عليه السلام - يريد أن يطمئن على إقامة أهله فى هذا المكان ، وأن يكون البيت مُصلًّى لله ، لا تنقطع فيه الصلاة ، وهذا هو الفرق بين بيت الله باختيار الله وبيت الله باختيار عباد الله .

فالبيت الذى نبنيه لله تعالى قد يُغلق حتى فى أوقات الفروض ، أما بيت الله الذى اتخذه لنفسه فلا يخلو من الطواف والصلاة فى أىِّ وقت من ليل أو نهار ، ولا ينقطع منه الطواف إلا لصلاة مكتوبة ، فإذا قُضيتْ الصلاة رأيتهم يُهرعون إلى الطواف .

وقد رأيت الحرم فى إحدى السنوات وقد دهمه سيل جارف حتى ملأ ساحته ، ودخل الماء الكعبة وغطَّى الحجر الأسود ، فكان الناس يطوفون سباحة ، ورأينا أناساً يغطسون عند الحجر ليُقبِّلوه ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يريد أن يظلَّ الطواف حول بيته لا ينقطع على أىِّ حال .

كذلك نفهم من قوله تعالى ﴿ تَهْوِي إِلَيْهِمْ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

من الفعل هَوَى يهوى ، يعنى : سقط ؛ لأن الذى يسقط لا إرادةَ له فى عدم السقوط ، كذلك مَنْ يأتى بيت الله أو يجلب إليه الخيرات يجد دافعاً يدفعه كأنه لا إرادة له .

كما نفهم منها معنى آخر ، فكل تكاليف الحق سبحانه ربما

تكاسل الناس فى أدائها ، فمنَّا مَنْ لا يصلي أو لا يُزكِّي . إلا الحج حيث قال الله فيه :﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً ..(٢٧) ﴾ [الحج] فمجرد أن تؤذن يأتوك .

لذلك نجد من غير القادرين على نفقات الحج من يجوع ويُمسك على أهله ليوفِّر تكاليف الحج ، فهو - إذن - الفريضة الوحيدة التى يتهافت عليها مَنْ لم تطلب منه .

ونلحظ أن إبراهيم - عليه السلام - دعا بالأمن للحرم مرتين : مرة فى قوله : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا .. (١٢٦) ﴾ [البقرة] يعنى : اجعل هذا المكان بلداً آمناً ، كأىِّ بلد آمن لا تُقام إلا فى مكان يُؤَمِّنون فيه كل مُقوِّمات الحياة ، فأىّ بلد لا تُبنى حتى من الكافر إلا إذا كان آمناً فيها ، فالطلب الأول أنْ يتحول هذا المكان الخالى إلى بلد آمن ، كما يأمن كل بلد حين ينشأ ، وهذا أمن عام .

ثم يدعو مرة أخرى ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا .. (٣٥) ﴾ [إبراهيم] بعد أن أصبحتْ مكة بلداً آمناً يطلب لها مزيداً من الأمن ، وهذا أمن خاص ، حيث جعلها بلداً حراماً ، يأمن فيها الإنسان والحيوان والنبات ، بل والجماد .

وقد وقف البعض عند قوله تعالى :

﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران]

وقالوا : أين هذا الأمن ، وقد حدث فى الحرم الاعتداء والقتل وترويع الآمنين ، كما حدث فى أيام القرامطة لما دخلوا الحرم ، وقتلوا الناس فيه ، وأخذوا الحجر ، وفى العصر الحديث نعرف حكاية جهيمان ، وما حدث فيها من قَتْل فى الحرم .

وهذه الآية : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران] جملة خبرية غرضها الأمر والحثّ ، كأنه تعالى قال : أَمِّنوا من دخل الحرم . وهذه ليست قضية كونية ، إنما قضية شرعية ، وفَرْق بين القضيتين : الكونية لابُدَّ أن تحدث ، أما الشرعية فأمر ينفذه البعض ، ويخرج عليه البعض ، فمَنْ أطاع الأمر الشرعى لله وأراد أنْ يجعل أمر الله صادقاً يُؤمِّن أهل الحرم ، ومَنْ أراد أنْ يكذِّب ربه يهيج الناس ويروعهم فيه .

ومن الآيات التى كثيراً ما يُسأل عنها فى هذا الصدد قوله تعالى: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ .. (٢٦) ﴾ [النور] يقولون : كثيراً ما يتزوج خبيث من طيبة ، أو طيبة من خبيث ، فالواقع لا يتفق مع الآية . نقول أيضاً هنا : هذه قضية شرعية تحمل أمراً قد يُطاع وقد يُعْصَى ، وليست قضية كونية لا بُدَّ أنْ تأتى كما أخبر الله تعالى بها ، ولا يتخلَّف مدلولها .

فالمعنى فى الآية : إن زوجتُم فزوِّجوا الخبيث للخبيثة ، والطيب للطيبة ؛ ليتحقق التكافؤ بين الزوجين ويحدث بينهما الوفاق ، حتى إنْ عيَّر الخبيث زوجته كانت مثله تستطيع أنْ تردَّ عليه ، لابُدَّ من وجود التكافؤ حتى فى (القباحة) ، وإلا فكيف تفعل الطيبة مع الخبيث ، أو الخبيث مع الطيبة ؟

إذن : فالآية وأمثالها قضية شرعية فى صيغة الخبر ، وإنْ كانت تعنى الأمر ، كما تقول عن الميت : رحمه الله بصيغة الماضى ، وأنت لا تدرى رحمه الله ، أو لم يرحمه ، إذن : لا بُدَّ أن المعنى دعاء : فليرحمه الله ، قلتها أنت بصيغة الماضى ، رجاء أن تكون له الرحمة .

نعود إلى قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا .. (٥٧) ﴾ [القصص]

ونلحظ هذا التمكين وهذا الأمن فى قصة الفيل ، حيث جاء أبرهة ليهدم الكعبة ، ويتقدّم الجيش فيل ضخم يقال له محمود ، فلما قالوا فى أذنه (ابْرُكْ محمود وارجع راشداً)[1] يعنى : انفد بجلدك (فإنك ببلد الله الحرام) فبركَ الفيل واستجاب .

ثم جاءت معركة الطير الأبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول . هذا كله من الأمن الذى جعله الله لقريش سكان حرمه ؛ لتظل الكعبة مسكونة بهم ، وما داموا هم سكان الحرم والناس تأتيهم من كل الأنحاء للحج كل عام ، فسوف يظل لهم الأمن بين القبائل ، ولا يجرؤ أحد على الاعتداء عليهم ، أو التعرُّض لقوافلهم فى رحلة الشتاء والصيف ، وأىّ أمن ، وأىُّ مهابة بعد هذا ؟

ومع الحجيج يُجلب الطعام وتُجلب الأرزاق ، وصدق الله العظيم :
﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

وكيف بعد هذا الأمن والأمان يخاف مَنْ يؤمن بمحمد أنْ يُتخطَّف من أرضه ؟ إنها مقولة لا مدلولَ لها .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَٰرِثِينَ (٥٨) ﴾

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٥٢) ، والذى قال للفيل : ابرك . هو نفيل بن حبيب الخثعمى . وفيه « أنهم ضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوه فى رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى ، فادخلوا محاجن (المحجن : عصا مُعقَّفة الرأس) لهم فى مراقّه فبزغوه بها ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن . فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك » .

كلمة ﴿ وَكَمْ (٥٨) ﴾ [القصص] كم هنا خبرية تفيد الكثرة ، كأنك تركتَ الجواب ليدل بنفسه على الكثرة ، كما تقول لمن ينكر جميلك ، ولا تريد أنْ تُعدد أياديك عليه : كم أحسنتُ إليك ، يعنى : أنا لن أُعدِّد ، وسوف أرضى بما تقوله أنت .لأنك واثق أن الإجابة سوف تكون فى صالحك ، وعندها لا يملك إلا أن يقول : نعم هى كثيرة . فكم هنا تعنى الكثرة ، وينطق بها المخاطب لتكون حجة عليه .

ومعنى : ﴿ مِن قَرْيَةٍ (٥٨) ﴾ [القصص] من للعموم أى : من بداية ما يُقال له قرية ﴿ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا (٥٨) ﴾ [القصص] البطر : أن تنسى شُكْر المُنعم على نعمه ، أى : أنه سبحانه لم يرد ذكره على بالك وأنت تتقلَّب فى نِعَمه ، أو يكون البطر باستخدام النعمة فى معصية المنعم عز وجل .

ومن البطر أن يتعالى المرء على النعمة ، أو يستقلها ويراها أقلَّ من مستواه ، كالولد الذى تأتى له أمه مثلاً بطبق العدس فيتبرَّم به ، وربما لا يأكل ، فتقول الأم كما نقول فى العامية : أنت (بتتبطر) على نعمة ربنا ؟ كلمة فى لغتنا العامية لكن لها أصل فى الفصحى .

إذن : من البطر أنْ تتجبَّر ، أو تتكبر ، أو تتعالى على نعمة الله ، فلا ترضى بها ، وتطلب أعلى منها .

ومعنى ﴿ مَعِيشَتَهَا (٥٨) ﴾ [القصص] أى : أسباب معيشتها ﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) ﴾ [القصص] فما داموا قد بطروا نعمة الله فلا بُدَّ أن يسلبها من أيديهم ، وإنْ سُلبتْ نعم الله من بلد هلكوا ، أو رحلوا عنها ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً (٥٨) ﴾ [القصص] هم الذين يقيمون بعد هلاك ديارهم .

﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) ﴾ [القصص] نرثهم لأنهم لم يتركوا مَنْ

يرثهم ، وإذا تُرِك مكان بلا خليفة يرثه آل ميراثه إلى الله تعالى .

وفى آية أخرى يعالج الحق سبحـانه هذه القضية بصورة أوسع ، يقول تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ..(١١٢) ﴾[النحـل] يعنى : بطرت بنعمه تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

ومعنى الكفر بالله : سَتْر وجود الله ، والسَّتْر يقتـضى مستوراً ، فكأن الأصل أن الله تعـالى موجود ، لكن الكافـر يستـر هذا الوجود ، وهكذا يكون الكفـر نفسـه دليلاً علـى الإيمان ، فـالإيمـان هو الأصل والكفر طارىء عليه .

ومـثـال ذلك قـولنا : إن البـاطل جُنْدى من جنود الحق ، فـحـين يستشرى الباطل يذوق الناس مرارته ، ويكتوون بناره ، فيعودون إلى الحق وإلى الصواب ، ويطلبون فيه المخرج حين تعضُّهم الأحداث .

وكذلك نقـول بنفس المنطق : الألم أول جنود الشفـاء ؛ لذلك نجد أن أخطر الأمـراض هو المـرض الذى يتلصص على المـريض دون أنْ يُشعره بأىِّ ألم ، فلا يدرى به إلا وقد اسـتفحل أمره ، وتفاقم خطره وعزَّ علاجه ، لذلك نسميه - والعياذ بالله - المرض الخبيث .

ففى قوله تعالى : ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

دليل على وجود النعم ، ومع ذلك كـفروا بها أى : ستـروها ، إما بعدم البحث فى أسبابها ، والتكاسل عن استخراجها ، أو ستروها عن المستحق لها وضنُّوا بهـا على العاجز الذى لا يستطيع الكسب ؛ لذلك يسلبهم الله هذه النعم ويحرمهم منها رغم قدرتهم .

وهناك أشياء لو ظلت موجودة لأعطتْ رتابة ، ربما فهموا منها أن هذه الأشياء إنما تأتيهم تلقائياً بطبيعة الأشياء ، وحين يسلب الله منهم

نعـمه ويقطع هذه الرتابة ، فـإنما لـيفـهمـوا أن الرتابة فى التكليفـات تُضعف الحكمة من التكليف ، كيف ؟

نقـول : الحق ـ تبـارك وتعـالى ـ حـرَّم علينا أشـيـاء وأحلَّ لنا أشياء ، فمثلاً حرَّم الله علينا الخمـر حتى أصبحنا لا نشربها ولا حتى تخطر ببالنا ، فـأصبحت عادة رتيبـة عندنا ، والله تعالى يريد أنْ يُديم على الإنسان تكليفَ العبادة ، حتى لا يعتادها فيفعلها بالعادة ، فيكسر هذه العادة مثلاً فى صوم رمضان .

ويُحرِّم عليك مـا كان حلالاً لك طوال العـام ، وقد اعتـدْتَ عليه ، فيـأتى رمضـان وتكليف الصـيام ليُحرِّم عليك الـطعام الذى كنت تأكله بالأمس ، ذلك لتظل حـرارة العـبادة مـوجـودةً تُشوِّق العـبـد إليهـا ، وتُعوِّده الانضباط فى أداء التكاليف .

ثم يذكر العـقـاب على الكفر بنعـمة الله ﴿ **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ .. (١١٢)** ﴾ [النحل] والجـوع له مظهران : أنْ تطلبـه البطن فى أول الأمر ، فإنْ زاد الجوع ضعُفَتْ الجوارح ، وتألمتْ الأعضاء كلها ، وذاقتْ ألم الجوع ، والله تعالى يريد أنْ يُرينا إحاطة هذا الألم ، فشبَّهه باللباس الذى يحيط بالجسم كله ، ويلفّه من كل نواحيه .

وهذه سُنَّة الله فى القُرى الظالمة ، كما قال سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ (٥٩) ﴾

إذن : لابُدَّ أن نُعْلم بالمنهـج ، ويأتى رسـول يقـول : افعل كـذا ،

ولا تفعل كذا ، حتى إذا حَلَّ العذاب بالكافرين يكون بالعدْل ، وبعد إلزامهم الحجة ، لا أنْ نتركَ الناس يذنبون ، ثم نقول لهم : هذا حرام.

وسبق أنْ قُلْنا ما قاله القانون : لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإعلام . وما كان الله ليهلك قرية ظلماً ، إنما عقوبةٌ لهم على ما فعلوا .

والقرية لها تسلسل فنقول : (نَجْع) وهو المكان الذى تسكنه أسرة واحدة ، و (كَفْر) لعدة أسر ، ثم (قرية) ثم (أم القرى) وهى الحضر أو العاصمة ، وقد نزل القرآن فى أمة مُتبدية ، تعيش على الترحال ، وتقيم فى الخيام تتنقل بها بين منابت الكلأ ، فقالوا (أم القرى) للمكان الذى تجد به القرى ، وتتوفر فيه من مقومات الحياة مَا لا يوجد فى النجوع والكفور والقرى الصغيرة ، كما يعيش الآن أهل الريف على قضاء حوائجهم من (البندر) ، كأنَّ أُمَّ القرى لها حنان ، يشمل صغار البلاد حولها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٦٠ ﴾

معنى : ﴿ مِن شَيْءٍ .. ٦٠ ﴾ [القصص] من أىِّ شىء من مُقوِّمات الحياة ، ومن كمالياتها ﴿ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا .. ٦٠ ﴾ [القصص] فمهما بلغ هذا من السُّمو ، فإنه متاع عمره قليل ، كما قال سبحانه :
﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ٧٧ ﴾ [النساء]

لذلك طلبنا منكم ألاَّ تنشغلوا بهذا المتاع ، وألاَّ تجعلوه غايةً ، لأن

بقاءك فيها مظنون ، ومتاعك فيها على قَدْر نشاطك وحركتك .

وسبق أنْ قلنا : إن آفة النعيم فى الدنيا أنه إما أن يتركك أو تتركه ، وأن عمرك فى الدنيا ليس هو عمر الدنيا ، إنما مدة بقائك أنت فيها ، ومهما بلغتَ من الدنيا فلا بُدَّ من الموت .

لذلك يدلُّنا ربنا - عَزَّ وجَلَّ - على حياة أخرى باقية مُتيقَّنة لا يفارقك نعيمها ولا تفارقه .

﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠ ﴾ [القصص]

﴿ خَيْرٌ .. ۝٦٠ ﴾ [القصص] لأن النعيم فيها ليس على قَدْر نشاطك ، إنما على قَدْر قدرة الله وعطائه وكرمه ، ﴿ وَأَبْقَىٰ .. ۝٦٠ ﴾ [القصص] لأنه دائم لا ينقطع . فلو قارن العاقل بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة لاختار الآخرة .

لذلك ، فإن الصحابى الذى حدَّثه رسول الله ﷺ عن أجر الشهيد ، وتيقَّن أنه ليس بينه وبين الجنة إلا أنْ يُقتل فى سبيل الله ، وكان فى يده تمرات يأكلها فألقاها[1] ، ورأى أن مدة شغله بمضغها طويلة ؛ لأنها تحول بينه وبين هذه الغاية ، ألقاها وأسرع إلى الجهاد لينال الشهادة . لماذا ؟ لأنه أجرى مقارنة بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة .

والحق - سبحانه وتعالى - حين يُجرى هذه المقارنة بين الكفار وبين المؤمنين يقول : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ .. ۝٥٢ ﴾

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال قال رجل للنبى ﷺ يوم أُحُد : أرأيت إن قُتلت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قُتل أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٨٩٩) فى كتاب الإمارة . قال ابن حجر فى فتح البارى : « لم أقف على اسم الرجل . وزعم ابن بشكوال أنه عمير بن الحُمام ، وسبقه إلى ذلك الخطيب . لكن وقع التصريح فى حديث أنس (عند مسلم) أن ذلك كان يوم بدر .. فالذى يظهر أنهما قصتان وقعتا لرجلين والله أعلم » .

[التوبة] إما أن ننتصر عليكم ونُذلكم ، ونأخذ خيراتكم ، وإما ننال الشهادة فنذهب إلى خير مما تركنا ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا .. (٥٢)﴾ [التوبة]

إذن : لا تتربصون بنا إلا خيراً ، ولا نتربّص بكم إلا شراً .

وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧)﴾ [الأعلى] لذلك ذيَّل الآية هنا بقوله تعالى : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠)﴾ [القصص] لأن العقل لو قارن بين الدنيا والآخرة لا بُدَّ أنْ يختار الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه(١) :

﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١)﴾

تُعد هذه الآية شرحاً وتأكيداً لما قبلها ، والوعد : بشارة بخير ، وإذا بشَّرك مُساوٍ لك بخير أتى خيره على قدر إمكاناته ، وربما حالت الأسباب دون الوفاء بوعده ، فإنْ كان الوعد من الله جاء الوفاء على قدر إمكاناته تعالى في العطاء ، ثم إنَّ وعده تعالى لا يتخلف ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ .. (١١١)﴾ [التوبة]

---

(١) **سبب نزول الآية :** عن مجاهد قال : نزلت في علي وحمزة وأبي جهل . وقال السدي : نزلت في عمار والوليد بن المغيرة . وقيل : نزلت في النبي ﷺ وأبي جهل . [أورده الواحدي في أسباب النزول ص ١٩٤] قال القرطبي في تفسيره (٧/ ٥١٩٠) : « قال القشيري : الصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم . وقال الثعلبي : وبالجملة فإنها نزلت في كل كافر مُتّع في الدنيا بالعافية والغنى وله في الآخرة النار ، وفي كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله في الآخرة الجنة » .

لذلك قال ﴿ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ .. (٦١) ﴾ [القصص] أى : حتماً ﴿ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٦١) ﴾ [القصص] وهو لا محالة زائل ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) ﴾ [القصص] أى : للعذاب .

وهذه الكلمة ﴿ الْمُحْضَرِينَ (٦١) ﴾ [القصص] لا تستعمل فى القرآن إلا للعذاب ، وربما الذى وضع كلمة (مُحضر) قصد هذا المعنى ؛ لأن المحضر لا يأتى أبداً بخير .

ويقول تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) ﴾ [الصافات]

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) ﴾[الصافات]

ثم يقول سبحانه مُؤكِّداً هذا الإحضار يوم القيامة حتى لا يظن الكافر أن بإمكانه الهرب :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢ ﴾

والسؤال هنا للذين أشركوا ، لا لمن أُشرك بهم ، وكلمة ﴿ وَيَوْمَ .. (٦٢) ﴾ [القصص] منصوبة على الظرفية ، لا بُدَّ أن نُقدِّر لها فعلاً يناسبها ، فالتقدير : واذكر يوم يناديهم ، والأمر لرسول الله ﷺ ، لكن لمن يذكره رسول الله ؟ يذكره للكافرين بهذا اليوم يوم القيامة .

والآية تعطينا لقطة من لقطات هذا اليوم الذى هو يوم الواقعة التى لا واقعةَ بعدها ، ويوم الحاقَّة أى الثابتة التى لا تَزَحْزُحَ عنها ، ويوم الصَّاخة أى : التى تصخّ الآذان التى انصرفتْ عنها فى الدنيا ، ويوم الطامة التى تطمُّ ، ويوم الدين ، أى : الذى ينفع فيه الدين .

والحق سبحانه يذكر هذه اللقطة لأمرين :

الأول : أن رسول الله ﷺ عُودى وأُوذى وهزىء به وسُخر منه ، واجتمعت عليه كل وسائل النكال من خصومه فبيَّتوا له بمكر ، وصنعوا له سحراً .. إلخ .

وحين تجد دعوة تُقابل بهذه الشراسة ، فاعلم أنها ما قُوبلت هذه المقابلة إلا لأنها ستهدم فساداً ينتفع به قوم ترهبهم كلمة الإصلاح ؛ لأنها تصيبهم فى مصالحهم وفى شهواتهم وفى جاههم وعنجهيتهم وطغيانهم ، فطبيعى أن يقفوا فى وجهها .

لذلك نجد كثيراً من الغربيين يعرفون عظمة الإسلام من شراسة عداوة خصومه ، يقولون : لو لم يكُنْ هذا الدين ضد فسادهم ما ائتمروا عليه ، ولو كان أمراً هيِّناً لتركوه للزمن يمحوه ، لكنهم أيقنوا أنه الحق الذى سيُذهب باطلهم ، ويقضى على طغيانهم .

فالحق سبحانه يأمر رسوله ﷺ أنْ يذكر ذلك اليوم يذكره لنفسه ، ويذكره لقومه ليعتبروا ، فربما إذا سمعوا ما فى هذا اليوم من القسوة والخزى والنكال ربما راجعوا أنفسهم فتابوا إلى الله .

إذن : ليس حظ الله تعالى من هذا العمل أنْ يُرهبهم إنما ليحذرهم ، لئلا يقع منهم الكفر الذى يُوقفهم هذا الموقف ، كما تُبشِّع لولدك عاقبة الإهمال ، وتُحذِّره من الرسوب لينفر من أسبابه ، ويبحث عن أسباب النجاح .

يقول تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ .. (٦٢)﴾ [القصص] وقد ناداهم فى الدنيا : يا أيها الناس ، يا بنى آدم فصمُّوا آذانهم ، وأعرضوا عن نداء الله ، واليوم يناديهم نداءً لا يملكون أنْ يصمُّوا آذانهم عنه ؛ لأنه

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر] فكأن الحق يُذكِّرهم بهذا اليوم ، لعلهم يرعوون ، ولعلهم يرجعون .

الأمر الثانى : أن الآية جاءت تسليةً لسيدنا رسول الله يقول له ربه : لا تيأس مما يصنعون معك ، ولا يحزنك كيدهم وعنادهم ؛ لأننى سأصنع بهم كيت وكيت . وأنت تستطيع أن تدرك سرَّ هذا الإيعاز النفسى فى نفس المضطهد وفى نفس المظلوم حين يشكو لك ولدك أن أخاه ضربه أو أهانه فتقول أنت لتُرضيه : انتظر سوف أفعل به كذا وكذا ، فترى الولد ينبهر بهذه العقوبة المسموعة ويسعد بها ، وكذلك حين يسمع رسول الله العقوبة التى تنال أعداءه على ما حدث منهم يسعد بها ، وتُسرِّى عن نفسه ما يلاقى .

ومضمون النداء ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [القصص] فلم يقُلْ شركائى ويسكت ، إنما وصفهم ﴿ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [القصص] لأنه سبحانه واحد لا شريك له ، وهؤلاء شركاء فى زعمهم فقط ، والزعم كما يقولون : مطية الكذب ؛ لذلك لن يجدوا جواباً لهذا السؤال ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [القصص]

ولو كان أمامهم شركاء لقالوا : ها هم الذين أضلُّونا ، فأذقْهم يا رب العذاب ضعْفين ، لكنهم لم يجيبوا فهذا دليل على أنهم غير موجودين ، لقد وقف هؤلاء المشركون حائرين ، لا يدرون جواباً كما قال تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾